الدقاق... دعوة لتبني مفهوم التنمية من اجل الصمود

حاوره: عماد موسى

في ظل الجدل الدائر في مجتمعنا حول تبني مفهوم تنموي بعينه، ظهرت عدة مدارس واتجاهات تحاول الحديث عن وجة نظرها ورؤيتها في مجتمع غير مستقر، ويخضع للتدمير الممنه من الاحتلال الاسرائيلي فهناك من رفع شعار التنمية من اجل المقاومة وشعار التنمية من اجل الصمود في الثمانينيات. وهناك من أطلق شعار التنمية الانعتاقية في تقرير التنمية البشرية الثالث بعد قيام السلطة الوطنية وتوقف الانتفاضة الأولى وهناك من يتحدث عن دور القطاع الخاص، وهناك من يتحدث عن أهمية دور المجتمع المدني، ولكن الأسئلة كثيرة حول نجاعة اتجاه دون سواه، وما هي الفروقات بين هذه المدارس وهل يمكن أن تعمل معاً؟ وأين دور السلطة ومؤسسات المجتمع المدني والاتحادات في إحداث تنمية واستنادا الى أي مدرسة من المدارس التنموية؟. وللحصول على اجابات شافية حول ما تقدم، أجرينا هذا الحوار مع المهندس إبراهيم الدقاق نائب رئيس مجلس الأمناء لجامعة بيرزيت، ورئيس المركز الفلسطيني لتطوير المشاريع الصغيرة في القدس.

*** كيف يؤثر الوضع القائم في المجتمع الفلسطيني على التنمية بوصفه مجتمعا غير مستقر نتيجة ممارسات الاحتلال؟، وكيف يمكن للتنمية أن تحدث؟ وما هي اولويات التنمية في المرحلة الحالية؟.**

صحيح اننا في مجتمع غير مستقر، ولذلك نواجه مشكلة اساسية وهي الاستدامة، وهذه اشكالية نابعة بشكل اساسي من الاحتلال بالذات لانه لا يمكن التنبؤ بخطوات الاحتلال، والتنمية عملية جدلية تراكمية تحتاج الى فترات زمنية حتى تعطي الثمار المطلوبة، ولكن الاحتلال له اجندة مختلفة عن الاجندة التي يتبناها الانسان الفلسطيني. وهمه الاساس ان يعطل عملية التنمية ليبقى السؤال ماذا نفعل في ظل وضع غير صحي. فالتنمية ليس لها تعريف كما تعرف الكتلة او الكثافة، وإنما يمكن أن تعرفها فيما يناسب وطنك، لذلك كان هناك اجتهاد فلسطيني في ملتقى الفكر العربي وكان لي دور في هذا العمل عندما، رفع شعار «التنمية من اجل الصمود » اذ اصبحت التنمية كلمة محددة لها هدف محدد وهو الصمود فوق الارض، لان العلاقة ما بين الانسان والجغرافيا مهددة تماما وبهذا تهديد لمفهوم التنمية. وفي تلك المرحلة كانت التنمية تقوم من قبل جهتين، هما مؤسسات المجتمع المدني و المؤسسات التقليدية سواء اكانت جمعيات خيرية او نواد والعلاقات العائلية والعشائرية داخل القرية نفسها وكانت تلك الجهات تقوم بهذا العمل كنوع من انواع التكاتف والتعاون، ولضمان بقائها واستمراريتها، وبهذا حققت نتائج ايجابية. كحال فلسطيني ٤٨، الذين مازالوا يناضلون من اجل الحفاظ على الأرض والبقاء عليها، حيث أوصى أميل حبيبي أن يكتب على قبره »ابق في حيفا«، فالبقاء هي النقطة الأساسية، ولن نعيش في فراغ، والسؤال هو كيف تعيش، هل تعيش مترفا؟ فإذا كنت كذلك يمكن أن نتكلم في قضايا التي تؤدي إلى الترف، وإذا لم يكن بإمكانك عملها وفقدت المعنى لبقائك في هذه الحالة عادة ما تترك البلد للبحث عن الترف، مثل أوربا والولايات المتحدة. أما الذي يريد أن يبقى هنا يعرف مسبقا انه يريد أن يقاوم، ولا يوجد أمامه حل آخر غير الصمود.

واذا ما تبنينا مفهوم التنمية من اجل الصمود الذي نملك فيه سهما كبيرا سيكون ركنها الأساسي هو الإنسان «التنمية البشرية». يعني أن لرأسمال البشري هو الأساسي، وطالما هو موجود هنا فهو قادر وواع لمواجهة التحديات المفروضة ونحن بحاجة إلى أن نستثمر في الانسان. وربما تختلف الاراء في تفسير معنى استثمار في الانسان، نستثمر في الصحة التعليم، في الوعي، الخ.

الاولويات

وإذا ما سألنا حول الاولوليات في المرحلة الحالية، لابد أن نتجادل وان نتحاور على ما هية الاولويات، وان تكون اولوياتنا مرنة قابلة للتغير حسب تطورات الظروف. إذ أننا في الوضع القائم لا يمكن لنا أن ننشئ قطاع صناعي متطور في الظروف الحالية، ففي الانتفاضة الحالية دمرت إسرائيل باحتلالها للمدن، ما بني من اقتصاد منذ ١٩٩٤، كذلك هدم الاحتلال البنية التحتية والحياة الأمنية، الخ. وهذا غير ضامن للصمود.

التطور التاريخي والمرحلي

يمكن تقسيم العملية التنموية حسب المراحل الآتية من ٦٧الى ٩٣ ومن ٩٤ إلى يومنا هذا، الآن وبعد ٩٤,٩٣ نشأت مؤسسات رسمية يفترض بأنها تمثل الشعب الفلسطيني وهي السلطة الوطنية ، وعلى اثرها اصبحت مسؤلية التنمية على الاقل شكلا من مسؤلية المؤسسات الرسمية ، ومثال على ذلك بكدار التي كان المأمول منها هو ان تخطط لبناء مجتمع فلسطيني ديناميكي قادر على مواجهة التحديات والانتصار عليها ولو بشكل جزئي ودفع الامور الى الامام، وعندما اتت السلطة الفلسطينية تحولت الى ادارة تنفيذية لم تعد مهتمة بالتنمية كمفهوم وانما اصبحت منفذة لمشاريع تنموية ، والفارق بين الاثنين كبير، عندما تنفذ مشاريع تنموية هل تلائم النظرية التنموية التي تتبناها أم لا تلائمها.كما تدخلت الجهات المانحة التي فرضت اجندتها في العمل التنموي باختيارها الاولويات التي تراها هي مناسبة وبالاستجابة الفلسطينية لاولويات الجهات المانحة، فهي تسعى الى خلق فرص عمل وهذا شيء غير جيد لانه مجرد إلهاء للناس حتى لا يثورون على الوضع القائم. اذاً نحن أمام مفاهيم مختلفة حيث هناك صراع في ميدان التنمية وهناك صراع على المستوى الفلسطيني، وهناك صراع على المستوى الفلسطيني الإسرائيلي وهناك صراع فلسطيني مع المانحين اذا نحن نحاول أن نجد طريقنا في زحام التنمية في الأرض الفلسطينية وعلينا ان نحدد مسارنا بشكل سليم.

*** من هو المسؤول عن التنمية حاليا السلطة الفلسطينية ام منظمات العمل الاهلي ام القطاع الخاص؟**

ألاحظ في هذا المجال غيابا واضحا للتعاون ما بين القطاعات المختلفة. فكل قطاع يعمل بشكل مستقل ومنفصل، لذلك مازال الترابط بينهم ضعيفا جدا. اذا ما تكلمنا عن السلطة فهي موجودة بهياكلها وقيادتها ولكن عمليا لا توجد سلطة حتى نواجه الحقيقة ونحل المشكلات في ظل غياب اذرع فاعلة وقادرة للسلطة الفلسطينية يبقى امامنا القطاع الخاص والقطاع الاهلي هذان القطاعان بامكانهما التحرك بحرية اكثر من السلطة الفلسطينية حيث انها مكبلة بظروف داخلية وخارجية، وبالعودة الى المرونة التي تحدثنا عنها بعيدا عن النواحي السياسية، ان نعطي دورا كبيرا جدا للمؤسسات الاهلية وللقطاع الخاص لان يقوم بدوره في هذا العمل، لكن لا بد من التوفيق ما بين قطاع العمل الاهلي والقطاع الخاص. فالقطاع الخاص يضعونه في بعض الادبيات انه قطاع جبان وانه يريد ان يحمي رأسماله ويريد ان يربح. أما القطاع الأهلي السليم مع التفريق ما بين بعض المؤسسات ا لتي عليها علامة سؤال وتلك التي تقوم بعملها بشكل سليم، أقول إن هذا القطاع عليه الجزء الاكبر لكن ليس الجزء الكامل ويجب ان نعمل تماما بدفع القطاع الرسمي لان يقوم بدور اكثر ايجابية في هذا العمل.واذا ماقام بهذا العمل بشكل ايجابي في تقديري، يمكنه او يملك ان يؤهل الظروف للقطاع الخاص لانه ينشط اكثر، ونحن نعلم ان رؤوس اموال هائلة هربت من هنا الى الخارج لان الظروف غير مناسبة ولم تكن محضرة للقطاع الخاص، كذلك البنوك التي أتت لمساعدتنا أصبحت هي تحمل فلوسها وتوظفها في الخارج. القطاع الرسمي عليه مسؤولية وعليه ان يشجع القطاع الخاص على أن يبقى هنا ضمن الحدود الممكنة. أما في المرحلة الحالية بالذات اعتقد ان القطاع الاهلي بالذات عليه دور اكبر من بقية القطاعات، لكن لا يلغي البقية.

*** هناك عدة مفاهيم تنموية كيف تراها وكيف يمكن الربط بينها؟.**

المشكلة في هذه الشعارات هي في الظروف وفي المفهوم السياسي، ربما الحديث عن التنمية من اجل المقاومة تصنف على الاقل كما اراها كالية مرحلية مرتبطة بالمقاومة فاذا انتهت المقاومة فلم يعد هناك ضرورة للتنمية. كما ان التنمية الانعتاقية التي تبناها تقرير التنمية البشرية الفلسطيني الثالث، هي منظور يتجاوز الواقع وهو هروب من وضع تعريف واضح ومباشر، فانا لا أريد الحديث وأن أدافع عن مفهوم التنمية من اجل الصمود، فاسرائيل ترفع شعار الترانسفير ومعنى ذلك ان وجودك نفسه مهدد فالحديث عن الانعتاق ماذا يعني ؟ وانت اصلا مهدد بوجودك، واذا ما اردت ان تتكلم عن الانعتاق في حال ضمنت وجودك، وضمان وجودك ما زال تحت السؤال. أما التنمية من اجل المقاومة هو شعار مرحلي كان في الانتفاضة الأولى، فلو كانت التنمية من اجل الانتفاضة، لتوقفت التنمية مع توقف الانتفاضة، ولكن التنمية من اجل الصمود تعني باختصار على ان تبقى على الارض وتعني نبذاً لواقع الاحتلال، هذا العنصر الاساسي الباقي يحتاج الى تعريف من اصحاب هذا الاتجاه.

أما أن أضع شعار مقابل شعاراً ممكن في شعارات التنمية الجزئية (التنمية من اجل الديمقراطية، التنمية من اجل الجندر، الخ)، وهذه شعارات جزئية لا تشكل الكل، و الأساس هو الاستمرارية والصمود ومواجهة الشعار الإسرائيلي. لذا يجب ان نتكلم عن شيء لبقائنا فوق الأرض كي نبقى ونحافظ على ثقافتنا ولغتنا وعلى علاقتنا الاجتماعية الموجودة. اما الانعتاقية فأنا لا اتفق مع المفهوم، هذا هروب من وضع شيء حقيقي ملموس، وهذا تعبير عام ونحن لسنا عبيداً !والانعتاق من ماذا؟.

*** إذا ما حاولنا ربط التنمية بالمأزق السياسي الفلسطيني الحالي منذ بداية الانتفاضة ووجود فراغ سياسي في ظل استمرار العدوان وفي ظل التوتر الوضع الإقليمي خاصة عند دول الجوار، ما هو أثر هذا الواقع على خطط التنمية؟.**

ماذا نعني بالتنمية، هل نعني بذلك خططاً لخمس سنوات كالاتحاد السوفيتي سابقا الذي كان ينفذ خططه بالقوة؟، أم نتكلم عن تنمية دينامية فيها حركة تتكيف بسرعة. أما عندنا فلا توجد إمكانية للتخطيط والتنفيذ، فلنسقط مفهوم التخطيط من اجل التنمية ، فالمشكلة الأساسية هي الاولويات التي أمامنا، ويجب أن نحدد اولوياتنا، وأكثر من ذلك لا نستطيع أن نعمل. والاولويات قابلة للتغير حسب المناخ السياسي. والنقطة الثانية التي يجب أن تأخذ بعين الاعتبار هو ان الفراغ السياسي لا يؤثر ، ففلسطينيو ٤٨ يوجد لديهم فراغ سياسي منذ العام ١٩٤٨، حيث تركوا بلا قيادة ولا نخبة لكنهم استمروا. كذلك فان دينامية الانتفاضة غير مرتبطة ارتباطا وثيقا بالاطر السياسية، ام على مستوى القاعدة والشارع يوجد هناك فراغ سياسي، لكن ليس بالمعنى المطلق، أي هناك فراغ من نوع ما، فمثلا القدس القانون المطبق فيها هو القانون الإسرائيلي والموجودون هم فلسطينيون يقاومون، رغم تدهور الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، وهذا يدلل على فراغ سياسي ولكنهم يعملون ويكافحون، إذاً التنمية هي رافعة من روافع العمل السياسي ويمكن للعمل السياسي إذا كان ناضجاً أن يكون رافعاً من روافع التنمية، ولكن الآن التنمية هي رافعة من روافع التنمية، والتنمية تستمر بوجود العمل السياسي وعدم وجوده.

*** ما هي رؤية الأستاذ إبراهيم الدقاق في إحداث تنمية أو تطوير فكرة التنمية من اجل الصمود؟.**

ما هو المستوى التنموي وما الذي نعنيه في التنمية حتى نتوهم إننا نريد أن نخرج من حالة الفقر إلى حالة الاكتفاء . مفهوم التنمية كما افهمه، هي عملية نضالية مستمرة وهي عملية دينامية جماهيرية، فالناس لا يحتاجون إلى تنظير وفكر، وإنما تجد الناس يلتفون مع بعضهم لمواجهة المشاكل إذا ما حدثت، لأنها تمسهم. وحتى وإن عدنا إلى الذين يقولون أن هناك تدهوراً في الوضع، وانه يجب وقف هذا التدهور. عليهم كبح التدهور وليس وقفه، ثم الانتقال إلى المرحلة الثانية وهذه ليست عملية بسيطة. والاحتلال الإسرائيلي أربك وقف آليات التدهور والتي هي من صنعه، فإذا استطعنا وقف التدهور في قطاع أو أكثر من قطاع، نستطيع بعدها الانتقال إلى مرحلة أخرى أو وقف التدهور كليا، وبعدها إلى التطور. ولكن المشكلة في كل العمليات التي نقوم بها هي استعادة المبادرة، والمعنى من استعادة المبادرة، أن نكون قادرين على فرض اولوياتنا وأن ندافع عنها، وان نرفض الاولويات المفروضة علينا واذا ما تمكنا من فرض اولوياتنا نكون قد استعدنا المبادرة الوطنية بايدينا وبعدها نستطيع مواجهة الطرف الأخر.

> **فالقيادة غابت عنها فكرة التنمية وهذا مبرر حسب رأيي كون القيادة كانت مشردة ليس لديها مكان، لكنها كانت تتعامل مع قضية التنمية من زاوية سياسية، فهي لم تستطع التخلص من عقلية التكتكة.**

> **اصبحت التنمية كلمة محددة لها هدف محدد وهو الصمود فوق الارض، لان العلاقة ما بين الانسان والجغرافيا مهددة تماما وبهذا تهديد لمفهوم التنمية.**

الوضع التنموي في المرحلة الراهنة

الوضع التنموي يتخلف، خاصة بعد فقدان البلد لمصادره البشرية وفقدانه كثيراً من العقول البشرية لخدمة البلد، وتصديرها إلى الخارج، لأن هذه العقول استنفدت البلد بتكلفة غير بسيطة حتى تم إعدادها، بالإضافة إلى فقدان كثير من مصادر الصمود، إذ نريد صناعة لتشغيل هؤلاء ونريد زراعة...الخ.

*** هل يمكن المراهنة على النقابات والاتحادات الجماهيرية في ظل وجود حصار في تعزيز واحداث تنمية؟.**

للأسف الشديد لا يمكن المراهنة عليها، لقد كنت في نقابة المهندسين لفترة طويلة ولقد سييست النقابة، واسقط البعد الاجتماعي للنقابة وأصبحت النقابة محتلة من قبل حزب واحد، حينها فقدت دورها، وأصبح إيمان أعضائها فيها محدوداً، وأصبح هناك تغيب للشرائح من خلال التسييس، كذلك الأمر بالنسبة لاتحادات العمال حيث تجد أكثر من مؤسسة أو اتحاد عمالي واحد في غزة والآخر في الضفة، دون ان ينجزو شيء للعامل والمواطن الصامد على الأرض مقاتلا من اجل لقمة عيشه، لذا فهو يقاتل من اجل التنمية والتحرر أكثر من السياسيين والمؤسسات التي تعاني من التسييس والصراع على المناصب والمقاعد.

***ما هو تأثير ثقافة (م، ت، ف) التي غابت عنها المفاهيم والنظريات التنموية على الوضع التنموي في الظرف الحالي؟**

دعني افرق بين(م، ت، ف) وما بين قيادة (م، ت،ف) فالمنظمة جسم يجتمع بداخله كل إنسان فلسطيني، فالقيادة غاب عنها فكرة التنمية وهذا مبرر حسب رأيي كون القيادة كانت مشردة ليس لديها مكان، ولا نستطيع أن ننكر أنها حاولت إنشاء مدارس كما في الكويت وأنشأت مؤسسة صامد، لكنها كانت تتعامل مع قضية التنمية من زاوية سياسية، والغرض تكتيكي وليس استراتيجيا . وهذا ما انتقل مع القيادة الفلسطينية إلى هنا ولم تستطيع التخلص من عقلية التكتكة ، فصارت تتعامل مع العملية التنموية لدعم موقف سياسي معين محدود التأثير والفترة الزمنية، لذلك لن تتمكن من خلق فكر تنموي حقيقي.

*** الإعلان عن بدء العمل على إعداد تقرير التنمية البشرية الرابع، ما أهمية هذه التقارير ؟ وما هي المحاور التي تحبذ أن يدور حولها التقرير؟.**

كل التقارير مهمة حتى إن لم تلب رغبتك، التقارير التي أعدت سابقا تقدر بالجيدة، وليس بالضرورة أن تكون هناك استجابة على ما أريد، ولكن من اجل تجاوز أزمة تعدد التقارير وعدم تركيزها على هدف واحد، كنت أتمنى أن يكون هناك مجلس تنموي أعلى يأخذ النتائج ويدرسها ويفكر كيف تستعمل في المستقبل، والمحور الذي أحبذ العمل عليه هو التنمية البشرية، أي البشر مرة أخرى، فالسلطة تذهب وتعود أما الناس هم الموجودون فوق الأرض وهذا يتميز عن غيره بكونه يحاول أن يخلق الفرصة لعودة الآخرين إلى الأرض، كذلك التركيز على كيفية تقوية الإنسان فوق هذه الأرض حتى يحافظ ويصمد عليها. لذلك لا بد أن تكون قضية التعليم هي محور للتقرير الرابع، فهو بالتأكيد لا يستطيع أن يلم بأبعاد التعليم، ولكن يمكنه أن يلم بالتعليم الابتدائي وغيره من قطاعات التعليم حتى نحيط بالصورة كاملة، خاصة مع توفر إحصائيات بشكل واسع، وأما التركيز على محور الديمقراطية يعتبر هذا كلاماً فارغاً، لست لأنني ضد الديمقراطية ولكن لأننا نستقيها من المقاييس الغربية والأمريكية. وفي النهاية المهم من كل ذلك إنجاز شيء.